الثوابت المصابيح

الدكتور سماح ادريس

وسط عتمة النظام العالمي الجديد المُبَشّر بالحرّيّة والديموقراطيّة، وفي زحام المتسابقين على استرضاء السيّد بوش تسابقاً يذكّرنا بتسابق الإبلِ الواردة في أشعار الجاهليين ومَنْ نَسَج على منوالهم، ثَمّة ثغرات تأبى الانسياق وراء «الجديد» وتتمسّك بثوابتها ويقينيّاتها. . . ثَمّة مصابيح قليلة لمّا تزل مُضيئة، تخبو حيناً وتتأجّج أحياناً تبعاً للرّيح ولوهج النّار في داخلها.

الثغرة الفلسطينية ـ كما يسمّيها الأمريكيون، ويسمّونها كذلك «عقدة التمثيل الفلسطيني» ـ والمصباح الفلسطيني ـ كما نُسمّيه نحن ـ في مأزق. فالانتفاضة تبدو معزولة وسط عالم عربيّ يرتَضي الهَيْمَنَة الأمريكيّة عَجْزاً أو ذُلاًّ أو عمالةً. فبَعْدَ مغامرةِ العراق في «ضمّ» الكويت، تنافست أنظمة النفط على تأييد الوجود الأمريكي فوق الأرض العربيّة، مسخّرةً خيرات هذه الأرض للشركات الأمريكيّة والأوروبيّة، ضاربة عرض الحائط بمقدّسات الأمّة وحاجات الشعوب العربيّة الأخرى وآمال المعارضة الوطنيّة القطريّة في الاستقلال والكرامة. وترافَقَ ذلك التنافس «النفطوي» مع تَراخي بعض الأنظمة الوطنيّة ورفعها مجدّداً شعارَها القديم / المتجدّد «الواقعية الثورية» ـ هذه «الثورية» التي لم يَرَ الشرفاء تجسيداً لها إلاّ في قمع تلك الأنظمة للمعارَضة، وتلك «الواقعية» التي لا يشتدّ اللغط فيها إلاّ حين يتعلّق الأمر بمقاومة إسرائيل والامبريالية. وتوازى الانهيارُ الرسميّ العربيّ مع تقديم بعض القوىَ الحيّة ـ بزعامة منظمة التحرير الفلسطينيّة ـ سلسلة تنازلاتٍ مجّانيّة للإدارة الأمريكيّة بدءاً من «نبذ» الإرهاب و«التخلّي» عنه وانتهاءً باستقالة [اقْرأ: إقالة] أبي العبّاس (صاحب العملية «الإرهابية» على شواطىء فلسطين) والترحيب بمشروع بايكر، وتأجيل موضوع القُدْس، والقبول بوفد مشترك مع الأردن، وغير ذلك.

ولنترك أمر الأنظمة والقوى العربيّة للشخصيات الوطنية والمثقفة في كُلّ بلدٍ أو فصيلٍ على حدة، ولنتحدّث عن «الواقعيّة» التي انتهجها نظام الحكم في لبنان من أجل تحرير الجنوب والبقاع الغربي من الاحتلال الإسرائيلي. لدى نظامِنا، باختصار، قناعةٌ (أو وَهْم) بأنّ الضغط الأمريكي وضغط «الشرعيّة الدوليّة» على إسرائيل سيلزمان هذه الأخيرة بالانسحاب من المناطق اللبنانية التي احْتَلّتْها. ولَيْتَ أنّ تلك القناعة اقتصرت على الإيمان القَلْبِيّ، فقد راحت الدولة تبسط «نفوذَها» على الجنوب، فأسقَطَتْ البندقيّة الفلسطينيّة، وأوهنت شوكة المقاومة الوطنيّة، بَدَل أن تكون هذه وتلك رديفتين لكيْ لا نَقول بديلتين ـ «للشطارة اللبنانية» و«الديبلوماسيّة» و«الحربقة» التي عُرف بها لبنان منذ الفينيقيين مرُوراً بإعلان الميثاق الوطني الشهير وانتهاء بالاتفاقات «الطائفية» (نسبة إلى «الطائف») التي أنْهَت الحرب إلى غير رجعة بإذن الله. . . وحتى كتابة هذه السّطور، كانت الدولة اللبنانيّة لا تزال تنتظر «استيضاحاتٍ» من زعيم «الشرعية الدولية» دو كوييار على منع هذه الشرعية انتشار الجَيْش اللبناني في المناطق التي يعيثُ فيها فَسَاداً جنودُ العدو وعملاؤه علماً أنّ وجود القوات الدولية في هذه المناطق حصل أساساً من أجل توفير السّلام تمهيداً لقيام «الشرعيّة اللبنانية» بمهامّها! ونحن لا نعلم ما مصير التنازلات التي سوف يقدّمها لاحقاً ـ ولا شكّ ـ نظامُنا اللبنانيّ ما دام بعضُ أركانه يردّد في السرّ والعلن ما مُفاده أنْ لا «بوش» (أي: لا خَسَارة) مع السّيد بُوشْ!

* * *

والحديث عن «الواقعية» في السنة الأخيرة بات لا يَعْني، باختصار شديد، إلاّ أمراً واحداً: هو تجميلُ صُورة العربيّ في مرآةِ البْيت الأبيَض. أوْ قُلْ في مرآة سيّارة الرئيس بوش الجانبيّة! وكثر الحديث وتشعّب عن «القتال الضّاري» الذي تخوضه الإدارة الأمريكية مع جماعات الضغط الصهيونيّة باسم مصلحة أمريكا العليا وباسم القرار الديموقراطي الشعبي المُستقلّ. وتبارى «أركيولوجيو» السياسة في لعبة التحفير والتشريحِ والتشطير ما بين سياسة الإدارة الأمريكية وسياسة إسرائيل.

غَيْر أنّنا كنّا نتمنّى لو كان عربُ أمريكا يفقهون في أمور الدهْلَزة (Lobbying) شيْئاً ممّا يبرع به الصهاينة في أمريكا. إذن لكان أولئك العَربُ كرّسوا قسماً من أموالهم المهدورة على موائِد القمار وفي بُطونِ البنوكِ وعلى عمليات «تحرير» وهميّة، للقيام بحملات داخل الكونغرس وعلى صفحات الجرائد والمجلاّت الغربيّة دعماً للحقّ

العربيّ السليب، أو لكانوا ـ وهذا أضعف الإيمان ـ دعموا بمالهم نشاط الجمعيّات الطلّابية والإنسانيّة العربيّة داخل الولايات المتّحدة، تلك الجمعيّات التي تجهد لتصحيح صورة الإنسان العربيّ في بلاد الشتات.

وفي هذا الصّدد، أذكر أنّني اتّصلتُ بعددٍ من السّفارات العربيّة في واشنطن حين كنتُ لا أزالُ أُعدّ شهادة الدكتوراه في جامعة كولومبيا في نيويورك. وكُنت مكلّفاً من قبل «النّادي العربي» في الجامعة المذكورة بـ «استجداء» المال من تلك السفارات من أجل إنجاح أوّل اسبوع فلسطينيّ تقومُ به جامعة أمريكيّة، وفي نيويورك معقل الصهاينة بالذّات. وكنّا نَرَى أنّ لفلسطين حقّاً علينا دونَه ماء وجُوهنا. لكنْ لشدّ ما دُهشت حين طلب منّي المسؤولون في السفارات التي اتّصلت بها (وكانت ثلاثاً) أن أعرض كُتَبَهم ونظريّاتهم وصورَ زعمائهم الموقّرين في إطار أسبوع فلسطين. وكان أن قرّرنا أن نستغني عن جميع السفارات، وأن نتحمّل أعباء «الأسبوع» وحدنا. فالحالُ أنّنا رَغبنا أنْ لا نزيدَ إلى تشويه صورة العربيّ في أمريكا تشويهاتٍ أُخرى!

* * *

هل يعني كلّ ما سبق أن نناطِح الصّخر وأن نخوضَ معاركنا الحاضرة واللاحقة بالسّلاح القديم عيْنه؟

الجواب من الناحية النظريّة: لا، قطعاً. غير أنه يتوجّب علينا تحديد الصُّخور التي نناطحها عند كُلّ مرحلة. فلا نحالف من يتكشّفُ عن خيانةٍ، ولا نُخوِّنُ مَنْ يُخالِفُنا في الرّأي أو الأسلوب حين يكونَ شريفَ المقصد قويّ الهِمّة.

فهل نحنُ نحاربُ «الغرب» كما ادّعت بعضُ الأنظمة المتسربلة بلباس «القوميّة» أو «الأصولية» على حد سواء؟ هذا سؤالٌ أرى أنّه من الضروري على كُلّ عربيّ ومسلم أن يطرحه يوميّاً.

فأنا إخالُ أنّنا جزءٌ من عالمٍ واحدٍ متداخل، فرضت ظروفٌ دوليّة قسريّة أن نَكون فيه طرفَه الأضعف من الناحية السياسية والعسكريّة على الأقلّ. غير أن ثقافتنا: شعرنا، رواياتنا، أزياءَنا، أفلامنا، مسارحنا، شديدة التأثُّر بـ «ذلك» الغرب. وإنّه لمن قبيل الهرطقة أن ننفي ذلك الغربَ عنّا وأن نتشبّث بأصوليّة مَحْض. فضلاً عن أن تشبّثاً كهذا سيوقعنا في حبائل «الاغْتراب»، وهو تعبيرٌ استحدثه المفكّر المغربيّ عبدالله العروي للدّلالة على أنّ اغتراب الإنسان العربي واستلابَهُ ناتجان عن تشبُّثه بمرجعيّة سلفيّة لا فرق أن تكون هذه المرجعيّةُ «غربية» أو «شرقيّة».

علاوة على ذلك فإنّ «معاداة» الغَرْب إطلاقاً أثبتت أنها شعارٌ يهدف إلى تثبيت أقدام النظام «الشرقي» الحاكِم، وإلى سَحْق كُلّ معارضة ليبرالية أو يساريّة له. فلا شكّ أنّ دعوة الحاكم «الشّرْقي» إلى محاربة الغرب إطلاقاً تستجيبُ لذاكرةٍ شعبيّة عربيّة إسلاميّة مليئة بالعداء للاستعمار الغربي. ولهذا فهي دعوةٌ تزيدُ من رصيدِ ذلك الحاكم من الناحية المعنوية ومن حيثُ قمعه للحرّيات، وإنْ جرّته تلك الدعوة إلى الهزيمة الفعليّة على أيدي «أعدائه» الغربيين.

والحال أنْ لا شيءَ يُسلّط الغَرْبَ على مصائرنا ويعمق الارتداد في صفوف أمتنا أقوى من فكرة عداء العَربِ أو المسلمين للغربِ بالمُطْلَق. فهذا العداء هو، أولاً وقبل كُلّ شيء، عداءٌ لأنفسنا ولسُنّة التطوّر التي لا تعرف المناطِقيّة والإقليمية. وهو، ثانياً، ـ كما أسلفنا ـ تكريسٌ للاستبداد المحلّي الذي يسلبنا أثْمَنَ ما نملك: كَرامتنا وشوقَنا إلى الحريّة. وهو ـ ثالثاً ـ إلغاءٌ «للشِقّ» التقدّمي المعادي للامبريالية الذي يخترقُ المجتمعات الغربيّة، وهو شقٌّ يناضِلُ رغم الصعوبات ضد سياسات حكّامه دفاعاً عن المظلومين في أنحاء عديدة من العالم[1].

* * *

قد تنهارُ أَنْظمةٌ وتساوِمُ أُخرى، وتسقط منظوماتٌ وتسودُ أُخرى. لكني أرى أنّه من واجبِ كُلّ التقدّميين، طلّاباً كانوا أو مُغنّين أو شعراء أو أدباء، أن يسيروا على إيقاع «الشرعية» الحقيقيّة، شرعيّة الحقّ لا شرعية الباطل والقوّة. وهذا لا يعني أنْ نُناطِح التاريخ. غير أن ثَمّة ثوابت قوميّة لن يحافِظ عَليْها وعلى تَوَهُّجها إلّا ضميرُ الأمّة الحيّ؛ مُغنّوها وشعراؤها وطُلّابها ومُصَوّروها ورسّاموها وقصّاصوها. فلعلّ هؤلاء، من بين مجموع الأمّة، هم الأكثرُ قدرةً على الحفاظ على الثوابت زمنَ التقوقع المفروضِ أو التكتيكات المفهومة.

* * *

ولذلك فإنّ للأنظمة وللمجالس الوطنية وللأمم المتّحدة أن تقرّر ما تُقرّر. وللطلّاب والمغنّين والمثقّفين العرب أن يختاروا خياراً آخر، فلا يستجيبوا إلّا لنشيد المقاومة المنبعث، خجولاً حيناً وهَدّاراً أحياناً أُخرى، مِن حُفرٍ ضيّقة وأكواخٍ لا تملك إلّا عزّةَ النفس وبوصلةَ التاريخ.

بيروت

---

(٢) لقد كان لي شرف المشاركة الفعّالة، أثناء وجودي في نيويورك، في تنظيم «الحركة المعادية لحرب أمريكا» ضد العراق الشقيق. ولا بدّ أن يكونَ لنا وقفات مطوّلة في المستقبل القريب مع تلك «الحركة» التي تبقى برغم هناتها وأمراضها الداخلية ـ نقطة مُنيرة وسط الفاشية الأمريكية.